

الجر جاوي وفرصة الخلافة

محمّد البحري

ربّما اعتُبرت مسيرة الإنسان عبر تاريخه الطويل تسلسلا من الأحداث المتفاوتة أهمية وأثرا وأصداء. هذه الأحداث هي من ناحية من فعل الإنسان ومسؤوليته، وهي من ناحية ثانية موجّهة لمساره وصناعة في تاريخه انعطافات من شأنها أن تصبغ التاريخ البشري بصبغة التعرج والتعقيد. على أنّ هذه الأحداث، مهما كانت جسامتها، ومهما كان فعلها في الإنسان وفي تاريخه، تبقى محدودة بالزمن. فالتاريخ أكبر وأعظم من مجموع أحداثه، ولا يمكن أن نتصور حدثا أبديا، إذ أنه بافتراض أبدية الحدث لم يعد هناك تاريخ. وإلى جانب هذه المحدودية، لا يمكن للحدث أن يتكرر. فإذا شهد التاريخ كثيرا من الظواهر التي تبدو على قدر كبير من التشابه والتقارب، فإنّ اختلاف الزمن والفضاء كفيل بنفي التكرار.

غير أنّ الإنسان، في وعيه الحادّ بتاريخه، وفي انهماجه المرصّيّ بمستقبله، وفي إثبات ذاته المحدودة إزاء مطلق الزمن، سعى جاهدا إلى إعادة عيش الأحداث المتميّزة، ولو كان ذلك

على سبيل التجوِّز أو حتى الوهم . وما تراكمُ المادة التاريخية في
الذاكرة البشرية سوى صدى لهذا السعي الدؤوب إلى استعادة
الحدث ، فالناس منشُدون بقوة إلى ماضيهم ، ولعلمهم يفعلون
في راهنهم بواسطة هذا الماضي ، إذ أن تمثل أحداث الماضي في
الوعي الإنساني كثيرا ما يفعل في إنجاز غيرها من الأحداث .
وما يقال عن الحدث التاريخي ينطبق على مسار الفكر البشري
وإن كان نسقه أقل تسارعا وتغيرا من نسق الحدث المادي .

لنذكر مثالا عمّا قدّمنا: قد دخلت الحروب الصليبية
التاريخ منذ حوالي سبعمائة سنة (منذ القرن الثالث عشر) ، لكننا
شهدنا في العقد الأخير من القرن العشرين ، إبان حرب الخليج
الثانية ، حضورَ الفكرة الصليبية بقوة لدى الطرفين الغازي
والمغزو . نقول «الفكرة الصليبية» لأن الفكرة أكبر من الظاهرة
والظاهرة أكبر من الحدث ، ولأن هناك جدلية خفية بين الفكرة
والحدث : أيّهما ينتج الآخر . وما دمنا مع هذا المثال ، فإننا
نطرح سؤالا: هل يجوز لنا الحديث عن «صليبية» في العصر
الحديث ، في المواجهة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي ،
صليبية في مواجهة فكرة الجامعة الإسلامية التي اتخذها السلطان
عبد الحميد شعارا ومبدأ عمل وجنّد لها كل ما استطاع من
وسائل ومن أتباع؟ الجواب البديهي يتمثل في أنه لايجوز بل
لايلق الحديث عن صليبية في العصر الحديث . ذلك أن
الغرب ، وهو أحد طرفي الصراع ، بل هو اليوم أقواهما ، هو
أوّل من سعى إلى التخلص من هذه الظاهرة ، بما أنّه شهد بداية

منها هي في حدّ ذاتها تغيّرا عميقا عصف بكلّ البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية القديمة واستحدثت بنى جديدة تكاد تكون على قطيعة تامة مع كل ما سبقها. بل يمكن القول إن الحروب الصليبية كانت عاملا أساسيا في هذا التغير العميق الذي لم يشهد له تاريخ البشرية مثيلا. فتوكفيل (A.deTocqueville)، في تتبعه الدقيق لسيرورة تطور المجتمع الغربي الداخلي من الطبقة الإقطاعية إلى الحداثة والمساواة والديمقراطية، يرى أن الحروب الصليبية كانت عاملا حاسما في هذه السيرورة. يقول بعد الحديث عن ظهور «ثورة ديمقراطية» في المجتمعات الغربية : «... عندما نقلّب صفحات تاريخنا، لا نكاد نجد أحداثا كبرى لم تُعدّ، طيلة سبعمائة سنة، بالنفع على المساواة. فقد أهلك الحروب الصليبية وحروب الأنكليز النبلاء وقسّمت أراضيهم، وأشاع إنشاء البلديات الحرة الديمقراطية في صلب الملكية الإقطاعية، وساوى اكتشاف الأسلحة النارية بين الفلاح والنيل في ميدان المعركة، ومنحت المطبعة عقلهما مصادر متساوية، وألقى البريد المعرفة على عتبة كوخ الفقير كما على أبواب القصور، وأكدت البروتستانتية أنّ الناس جميعا متساوون في القدرة على الاهتداء...»⁽¹⁾.

ونابوليون بونابارت، في حملته على مصر، يعلن للشعب المصري براءته من الصليبية بل عداؤه لها. يقول - بقطع النظر عن مطامحه الحقيقية - في الخطاب الذي وجهه إلى المصريين

(1) Alexis de Tocqueville; De la Démocratie en Amérique, introduction p.p 3 - 5

والذي أوردته جميع الدراسات: «.. أيها المشايخ والقضاة.. . قولوا لأمتكم إن الفرانساوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا وطرّدوا منها الكواليرية⁽¹⁾ الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.. .».

نقول بعد هذا إنّه بصفة أساسية، قد سعى الغرب الحديث إلى التخلص من الصليبية، رغم كثير من مظاهر المحافظة المتمثلة أساسا في النشاط التبشيري الكنسي، لأنه في حدّاته وفي غمط اقتصاده الرأسمالي ينشد بحق انتصار البضاعة لا غيرها. والبضاعة، ابنة الليبرالية، تتطلب حرية العبور فهي لا تتقيد بأية منظومة ولا عقيدة، وإنما عقيدتها الوحيدة هي السوق وفتحها. لقد نظرت إلى العالم على أنه أسواق فعلية وممكنة، وإلى الشعوب على أنها ذات غمط واحد هو غمط الاستهلاك، فمن الطبيعي إذن أن تستوي في نظرها الأديان والأجناس، بل من الطبيعي أن تستميل الأديان المختلفة وأصحابها خدمة منها للسوق. ولعله من المفيد أن يُدرّس ذلك الصراع الطويل الخفي والمضحك في الوقت نفسه بين صانعي الاستعمار الرأسمالي ورجال الكنيسة في جهودهم التبشيرية، ذلك الصراع الذي انتهى بانتصار استعمار السوق انتصارا ساحقا.

(1) الكواليرية: يعني بهم فرسان القديس يوحنا الذين صاروا يسمّون منذ احتلّوا مالطة سنة 1530 فرسان مالطة. وهم في الأصل جمعية لإسعاف المرضى من حجيج القدس، ثم صاروا منظمة عسكرية صليبية حتى سنة 1798 لما احتل نابليون مالطة.

وعلى الرغم مما سبق ذكره، يمكن أن نطرح في شكل تساؤل فحسب فكرة الصليبية نظرا إلى خصوصية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونظرا إلى خصوصية الكتاب الذي يتناوله هذا الحديث. وإننا إذ نطرح هذا التساؤل فإنما لمحاولة سبر أغوار جانب من الفكر الإصلاحي إزاء الفرص التي أتاحت له، والتحديات التي طرحت عليه. فقد طغى على الفكر الإصلاحي العربي الإسلامي حضور أوروبا الغربية متمثلة في قوتين عظميين هما أنكلترا وفرنسا، القوتين الإمبرياليتين، اللتين تقاسمتا النفوذ على جميع الأقطار العربية الإسلامية تقريبا. ولسنا نكرر هنا الحديث في ما وقع من فرض الامتيازات (Les capitulations) على السلطنة العثمانية ولا التدخل لحماية الأقليات ولا التدخل العسكري ولا إجبار السلطنة على فتح أسواقها ولا فرض الدساتير عليها ولا استعمار بعض من ولاياتها. . . فهذا كله مسطور في كتب التاريخ. وإنما نريد الإشارة إلى «فرع آخر» من الفكر الإصلاحي، إن صحّ التعبير، أو على الأقل إلى مجموعة من أفكاره وهو المسمى فكرة الجامعة الإسلامية. هذا «الفرع» ليس مستقلا في حد ذاته وإنما هو منبث في ثنايا التيارات الفكرية المعروفة لدى الجميع من سلفية وغيرها. لا نسمي هذا الفرع أو مجموعة الأفكار والمواقف تيارا فكريا قائم الذات، إذ هو مندرج أساسا ضمن التيار السلفي الإصلاحي ولكن نروم التنبيه فقط إلى ضرورة أشمل مما تعودنا عليه من

تصنيف للتراث الإصلاحي في العصر الحديث . للتوضيح نقول إنه إذا كان الغرب الأوروبي قد «استولى» على الجناح الجنوبي للسلطنة، فإنّ روسيا القيصرية قد كانت تقريبا الفاعل الأساسي في انفصال جناحها الشمالي، أي ولاياتها الأوروبية. على أن فعل أوروبا الغربية في الجنوب بالأساس وفعل روسيا شمالا، رغم تزامنها وتقارب أهدافهما، متباينان في طبيعتهما . فروسيا لم تشارك قديما - بصفتها مجموعة واعية - في الحروب الصليبية، على غرار أوروبا الغربية. فكأننا بها منذ بطرس الأكبر بدأت تتدارك ما فاتها من حرب دينية، فقد غدّى بطرس الأكبر فكرة حماية المسيحية الأرثوذكسية، وسعى إلى تخليص المسيحيين من قبضة العثمانيين، وإلى مركزة الكنيسة في روسيا على غرار بابوية روما، فتدخلت روسيا طبقا لذلك لتحرير اليونان في 1828 - 1829، ولتحرير البلقان في 1877 - 1878. وسعت داخل ولايات الجنوب أي البلدان العربية إلى حماية المسيحيين الأرثوذكسيين وكان تدخلها محسوسا جدا، وكان حضورها على قدر كبير من التعقيد، نظرا إلى تعقد العلاقات بين المذاهب الدينية. ومعنى هذا أنّ العمل الروسي أقرب إلى طبيعة الصليبية. وبهذا الصدد يكتب نجيب عازوري سنة 1904 في أسلوب لا يخلو من سخرية ولا من إدراك عميق للخلفيات الدينية لدى الروس وهم يعملون بما سماه وصية بطرس الأكبر: «إنّ قدسية روسيا حيال هؤلاء الطيبين هي في تجسيدها

للأرتودوكسية، الدين الحقيقي الذي يجب أن يهيمن على الأرض من أجل إتمام نبوءة الإنجيل عندما يتحدث عن راع واحد وقطيع واحد، والقيصر الأبيض ابن الشمس هو القائد المنظور (المنتظر؟) لهذا الدين العالمي، بيد أن القدس تحوي قبر المسيح، بالإضافة إلى المقدسات الأخرى المتصلة بأفعال من حياته الإنسانية ومعجزاته المختلفة ويعطي فتح المدينة المقدسة المنتزعة من الكفرة للقيصر سحرا أدبيا كبيرا تجاه جميع الأرتودوكس ويمنحه شيئا من الرفعة على البابا الذي اضطر أن يقبع في مدينة سجن فيها ولم يسكنها المسيح...⁽¹⁾، ثم يرى بعد ذلك أن «روسيا تعتبر نفسها الوريث الوحيد للرجل المريض»⁽²⁾. من خلال هذا نتساءل: ألا تكون فكرة الجامعة الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها ردا «إسلاميا» على هذه «الصليبية» الجديدة، أكثر مما هي رد «سياسي» على تدخل القوتين العظميين أنكلترا وفرنسا؟ نورد بهذا الصدد قولاً لبرنار لويس: «في الوقت الذي وقع فيه طرد المسيحيين، حتى العثمانيين منهم من الإدارة، ازداد تأكيد الطابع الإسلامي للامبراطورية وضرورة الوحدة الإسلامية التي ستنتصر في العقد الموالي، ففي زمن سلطنة عبد العزيز وقع بقوة خاصة تطوير الفكرة القائلة إن السلطان العثماني ليس رئيس مسلمي

(1) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية تعريب وتقديم د. أحمد أبو ملحم ن. بيروت 1979 ص 13.

(2) م. س. ص. 110.

الأمبراطورية فحسب وإنما هو كذلك الخليفة بالنسبة إلى كل المؤمنين وهو - وهذا هو الأمر الجديد - وريث الخلفاء الأوائل»⁽¹⁾.

ألا يستفاد من قولي عازوري ولويس أنّ الأمر يتعلق بمجابهة بين قوتين ما تزالان في طور الحروب الصليبية؟ إننا نطرح السؤال مع قناعتنا بأن الحدث التاريخي لا يتكرر، وبأن العثمانيين والروس مهما اعتنقوا فكرة الحرب الدينية، لا يمكن أن يعودوا إلى الوراء. قد يدعم تساؤلنا وضع روسيا نفسها، فقد كانت في زمن هذه الأحداث متخلفة بالنسبة إلى أوروبا الغربية، إذ جاءت نهضتها متأخرة، بل كانت زمن الثورة الصناعية تعيش بقايا عصر الإقطاع، ومن هنا اتخذ الصراع بينها وبين السلطنة نسقا يختلف عن نسق المواجهة بين السلطنة والقوى الغربية. إن المهم من هذا كله هو الدعوة إلى مزيد البحث في الجوانب المغفلة من الفكر الإصلاحي وإلى عدم الاكتفاء بما استقر من تنميطة تقليدي. ونشير بهذا الصدد إلى أننا في دراسة فكرنا الحديث، الإصلاحي منه خاصة قد أهملنا أو كدنا، رافدا هاما جدا هو الفكر المتأثري من الصراع العثماني الروسي، فنحن مثلا لم نهتم بتاريخ الولايات العثمانية الأروبية ولا بمآلها إلا عرضا. يذكر لنا التاريخ أن القوتين العظميين لم تحتل هذه الولايات مثلما فعلتا بباقي الولايات العربية والإسلامية في آسيا، هل كان ذلك عرضا؟ هل كان نتيجة

(1) برنار لويس، الإسلام واللائكية ص 114

لاتفاق ضمني مع روسيا؟ فقد جاهدت روسيا في سبيل بسط هيمنتها على الولايات العثمانية الأوروبية. وبعد، أليس بسط الاتحاد السوفياتي نفوذه على أوروبا الشرقية ، في الحرب العالمية الثانية وبعدها، سيرا على خطى روسيا القيصرية في ثوب جديد هو ثوب الاشتراكية؟ ثم أليس اعتناق بعض المثقفين العرب للفكر الاشتراكي، في الجانب اللاواعي منه على الأقل، بمثابة رد الفعل على صليبية روسيا القيصرية و قد استقرّ الحقد عليها في لاوعي الأجيال؟

في هذا الإطار يتنزّل الاهتمام المفاجيء للمفكرين والأدباء العرب باليابان. وبهذا الصدد لابد من إبداء جملة من الملاحظات التمهيديّة:

أولا، إنّ الآخر في الفكر العربي الحديث انحصر في الغرب الأوروبي، بحيث صارت الحضارة هي حضارة هذا الغرب، وصار التقدم والمدنية والتحرر وغير ذلك مختصا بالغرب مقتصرًا عليه. وقد كان من الممكن أن تحظى روسيا بجانب وافر من اهتمام الفكر العربي لولا الأحداث الخطيرة التي شهدتها، أحداث الثورة البلشفية، هذا بالإضافة إلى أن عامل اللغة كان له دور فاعل، فلم تُتعلّم الروسية ولم تترجم الكتب منها إلى العربية إلا بعد تلك الثورة بعقود .

ثانيا، لم يلتفت المصلحون العرب إلى اليابان ولا إلى نهضتها إلا بعد انتصارها العسكري على روسيا، أي بسبب

حدث تاريخي متميز . ولعل هذا يوحى إلينا برأي في الفكر العربي هو أنه فكر أحداث تعرض لا فكر تحليل واشتشاف .
ثالثا، إن اهتمام العرب الكبير بهذا الانتصار دون غيره كان بسبب أن اليابان عدو لروسيا وروسيا عدو للسلطنة، نقول هذا دون أن نغفل عن أن تغني العرب به ناتج عن كونه أول انتصار للشرق على الغرب في العصر الحديث، فهو يمثل فرصة لاعتناق مأمول .

رابعا، إنّ الرأي العام العربي وكذلك العالمي قد كان على يقين من انتصار روسيا، يقول نجيب عازوري سنة 1904، دون أن يلغي فرضية هزيمة روسيا: «إذا أرادت روسيا أن تتجني بعض ثمار انتصارها القريب على اليابان، فلا يجب عليها أن تضع العوائق بوجه استقلالنا، وإذا هزمت فلن يُجديها نفعا اعتزازها بنفسها»⁽¹⁾ . فكان وقع انتصار اليابان وقعَ الحادث الخارق .

في هذا الإطار كذلك يتنزّل اهتمامنا بكتاب الجرجاوي في هذا المقال .

المؤلف علي أحمد الجرجاوي صحافي رأس جمعية الأزهر العلمية، وأصدر جريدة الإرشاد بالإسكندرية سنة 1899 وهي «لسان حال» الجامعة الإسلامية، ثم أصدر بعد عودته من اليابان جريدة الأزهر المعمور حتى سنة 1907. يذكر الزركلي

(1) عازوري، م. س. ص. 118 .

في الأعلام أنه توفي سنة 1922، ويذكر مقدّم الطبعة الجديدة⁽¹⁾ أن السلطان عبد الحميد كان يدعم الجرجاوي، بل كان يمّوله، ويعزو توقّف جريدته إلى انقطاع تمويل السلطان. وقد قام برحلته إلى اليابان عام 1906، بعد حوالي سنة من انتهاء الحرب الروسية اليابانية. وككلّ الرحّالة دوّن الجرجاوي كل ما لفت انتباهه، فكتب عن التعليم العصري في اليابان وعن وطنية اليابانيين وعن المرأة وعن حرية الصحافة الخ.. غير أن القراءة الأولى للكتاب تشير كثيرا من التساؤل ومن الشك أيضا. فالرحلة كما يصرّح صاحبها، تهدف إلى الاطلاع على تجربة اليابان في نهضتها العملاقة العجيبة. يقول في ص 13: «وإني لم أقصد برحلي هذه في الحقيقة مجرد الاشتراك مع الذين ذهبوا إلى اليابان في نشر تعاليم الدين الإسلامي، بل كانت رغبتى متوجّهة أيضا إلى استطلاع أحوال هذه الأصقاع ومقدار ما وصلت إليه من المدنية وتقدّمها في العلوم». غير أنه كان قد صرح قبل هذا في الصفحة السابقة مباشرة، أنه ذهب إلى اليابان للاشتراك في مؤتمر عالمي للأديان، دعا إليه الأمبراطور نفسه، يقول في ص 12: «وقد كنت أقرأ في الصحف المحلية ما تنقله من الأنباء المتواترة بانعقاد مؤتمر ديني في بلاد اليابان بأمر الميكادو الحاكم على تلك البلاد، وتوجّه البعثات الدينية من المسلمين وغيرهم لحضور هذا المؤتمر الذي تنحصر أعماله في

(1) الشيخ علي أحمد الجرجاوي: الرحلة اليابانية، ميريت للنشر والمعلومات ط 2 القاهرة 1999 تقديم د. رؤوف عباس. وقد اعتمد الناشر الطبعة الأولى للكتاب الصادرة بالقاهرة سنة 1906.

البحث في أصول كل دين». هل كان السفر من أجل حضور مؤتمر علمي عالمي أم كان من أجل نشر الإسلام في هذا البلد النائي؟ لتتابع قراءة الرحلة: إنّ المؤتمر حسب تصريحه «تتخصر أعماله في البحث في أصول كل دين». ولكن المؤلف يجعل له غاية غريبة مخالفة لهدفه العلمي، إذ يورد في ص 149 تصريح أحد المؤتمرين اليابانيين: «الغرض الوحيد (من عقد المؤتمر) هو الوقوف عند دين نتّخذة الدين الرسمي للحكومة اليابانية». وإذن فاليابان بعد انتصارها الساحق على روسيا تأملت ذاتها فوجدت إنها لا دين لها، فقررت عقد هذا المؤتمر لتختار الدين الملائم، هكذا بكل سهولة، وكأنّ الشعوب تعتنق الأديان بمقتضى المؤتمرات. إنّ الإشارة واضحة هنا: فاليابان قد حصلت على القوة المادية العسكرية والمدنية إلا أنّها ماتزال مفتقرة إلى الحقيقة، لذلك عليها أن تختار اعتناق الإسلام، دون غيره من الأديان، لأنّه يمثل الحقيقة المطلقة ولأنّه يوافق العقل كما ردد ذلك مرارا في ثنايا الكتاب. ولكن للواقع وللحقيقة سلطتهما التي لا يمكن لأيّ كان أن يتجاوزها، وهكذا، رغم أحقية الإسلام، بصفته دين الحقيقة والعقل، ورغم انتصاره الساحق على المسيحية بكل مذهبها في كل الوقائع في ساحة المؤتمر، يشاء الواقع والتاريخ (ويشاء المؤلف كذلك) ألاّ تتفق الأمة اليابانية في نهاية المطاف على اتخاذ دين ما.

سافر المؤلف لحضور المؤتمر دون استدعاء من الحكومة اليابانية، على ما يبدو، ولا من الهيئة المنظمة للمؤتمر، غير أنّه

يذكر أنه باشر نشر الدين الإسلامي . فقد عقد مع أربعة مسلمين آخرين ثماني عشرة جلسة للتعريف بالإسلام والدعوة إليه ، كانت نتيجتها أن أسلم حوالي اثني عشر ألف ياباني بعد استماعهم إلى المحاضرات مترجمة من العربية إلى الأنكليزية ومن الأنكليزية إلى اليابانية . بل يذهب به الأمر إلى أن امبراطور اليابان نفسه مال إلى اعتناق الإسلام ، بسبب مؤتمر دام أياما قصيرة ، أو بسبب نشاط المؤلف في ظرف شهر واحد . يقول في مسحة من الأسف في ص 151 : «إن السبب في عدم إسلام جلالة متسو هيتو امبراطور اليابان ليس اعتقادا في عدم موافقة الدين الإسلامي للعقل . . لاسيما وأن اعتبار الدين الإسلامي عنده وعند باقي رجال المؤتمر من اليابانيين اعتبار أكسبه صفة الامتياز عن باقي المذاهب الأخرى التي دار البحث والمناقشة فيها في جلسات المؤتمر . . ولكن الأمبراطور بعيد النظر في الأمور السياسية ، ومن بعد نظره فيها أنه يراعي حال الأمة ، فلما لم يجدها وافقت على دين تتخذه كي يكون الدين الرسمي لها ، لم يصرح بالدين الذي يعتنقه إذ ربما صرح مثلاً بأنه اختار الدين الإسلامي ولكن الأمة لم توافقه على ذلك» . هل أصبح امبراطور اليابان مسلما يخفي إسلامه ؟ وهل رُزقت الجامعة الإسلامية بحليف جبار تواجه به صليبية الروس ؟ نترك الجواب لتقدير القارئ .

في اليابان أعجب الجرجاوي بازدهار الصحافة وركز بالخصوص على حريتها ، أمّا في ما يتعلق منها بمؤتمره للأديان

فقد أبدى احتياطا عجيبا: يقول في ص 185 : «وقد عرفت أيضا أنّ أخبار المؤتمر الديني كانت بعيدة عن علم أصحاب الجرائد أيام انعقاد جلساته. فعجبت من ذلك ولكن التمسّت العذر للحكومة لأن من اليابانيين من اعتنق الدين الإسلامي ومنهم اعتنق المسيحية ومنهم البوذيون والوثنيون. فإذا نشرت المحاورات والمناقشات التي دارت بين أعضاء المؤتمر المتدين من الدول لا يؤمن من تولد الأحقاد في نفوس أهل المذاهب الدينية...». إذن، سكّنت الصحافة تماما عن مؤتمر عالمي دعا إليه الأمبراطور، فهل حدث هذا المؤتمر فعلا في التاريخ وفي اليابان أم في مخيلة المؤلف فحسب؟

نورد بإيجاز بعض المواضيع الأخرى من الكتاب، فقد أفاض الجرجاوي الحديث عن فشل المبشرين المسيحيين الذريع في استمالة اليابانيين مقارنة بنجاح الدعوة الإسلامية. وأغفل ما قامت به اليابان قبل القرن التاسع عشر من مذابح ضدّ المبشرين واليابانيين المسيحيين على حدّ السواء، في خضمّ عزلتها الطوعية وانغلاقها ضدّ الغرب. ليست الظاهرة إذن ظاهرة فشل، وإنما هي ظروف تاريخية متشابكة، وفي اليابان اليوم مسيحيون كما أنّ فيها مسلمين، ولكن وجودهم ليس نتيجة لمؤتمر ولا لمحاضرات مترجمة ولا لقرار حكومي. و تغنى كثيرا بوطنية اليابانيين وبروح التضحية لديهم وكذلك بنخوة الاعتزاز بالنصر التي عمّت كل البلاد. ولسنا نشكّ في هذا، إلا أنّنا نلاحظ أنّه لم يورد آية إشارة إلى ما عانته اليابان في هذه الحرب. فقد

دامت الحرب الروسية اليابانية أكثر من سنة ونصف (من فيفري 1904 إلى سبتمبر 1905) وتكبدت فيها اليابان خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد كما يقال واهتز بنيانها الاقتصادي، وتعطلت نسبيا مسيرة نهضتها، ولولا مساندة بريطانيا لما وُقِّعت إلى النصر. زد على هذا أنها في معاهدة السلام برعاية الولايات المتحدة الأمريكية لم تنل شيئا يذكر مما يناله المتصرون من تعويض عادة. وهكذا اجتاحت البلاد موجة من الغضب والمظاهرات طالب فيها الناس بتعويضات لأهالي الجند الذين ضحت بهم الدولة في مصالح الطبقة الرأسمالية، وقد ردت السلطة على هذه المظاهرات بالقوة والعنف. فعاشت اليابان فترة من أسوأ فترات تاريخها الحديث، شبيهة إلى حد بعيد بفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، عند هزيمتها واستسلامها للولايات المتحدة. فلم ركّز الجرجاوي على الجوانب المشرقة من هذه الظاهرة، حتى أنّ حديثه لم يختلف عما تناقلته الصحف في مصر دون أن يكون محرروها قد رحلوا إلى اليابان. أيرجع الأمر إلى جهل بالواقع والتاريخ أم إلى تعمّد طمس الحقائق لأسباب سياسية دعائية وتعبوية؟ بل يكاد القارئ يتساءل متشككا: هل وقعت الرحلة فعلا؟

وقد تحدث في رحلته عن مصر وإيطاليا وعن تونس مشيدا بتعلّق أهلها بالخلافة رغم معاناتهم الشديدة من تعسّف الاستعمار الفرنسي، وعن الهند والصين، هذا بالإضافة إلى الموضوع الأساسي وهو اليابان. والواضح أنّ الفكرة التي توجّه

جميع ملاحظاته ومواقفه هي فكرة الجامعة الإسلامية في مواجهة النصارى، يقول مثلاً في ص 63 بخصوص مروره بتونس: «إن تعلق المسلم بعرش الخلافة الإسلامية أمر طبيعي غرسه الدين في قلبه فلا غرابة في ذلك، ولكن الغريب هو التفاني في هذا التعلق إلى درجة يسترخص فيها بذل الروح في سبيل الدفاع عن هذا المقام، وهو ما وصل إليه أهل تونس والجزائر. والسبب في ذلك هو ما يقاسونه من استبداد فرنسا بهم وسوء معاملتها لهم". وإنه ليطول بنا الحديث إذا تتبعنا الكتاب في كل تفاصيله، لذلك نكتفي بإبداء بعض الملاحظات العامة حول الرحلة:

أكبر الظن أن الرحلة ليست علمية ولا استطلاعية ولا في سبيل الدعوة، وإنما هي بعثة دبلوماسية دعائية بالأساس لعلها كانت بإيعاز من السلطان عبد الحميد أو أعوانه، لدعم الفكرة الإسلامية، أي كيان السلطنة على ما يريدها السلطان، بحليف قوي منتصر. هذا الحليف القوي المنتصر شاء المؤلف - دائماً في نطاق الدعاية للخلافة - أن يكون رافضاً للمسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية، وجاهلاً للأرتودوكسية، مذهب العدو الروسي، جهلاً تاماً، ومتقرباً من الإسلام وبالذات الإسلام السنّي. يقول في ص 154: «هذا وإن المسلم الغيور على دينه، المتفاني في سبيل إعزاز جامعته، يودّ بكل قلبه أن يصبح الدين الإسلامي هو الدين الرسمي لهذه الأمة الشرقية الحيّة.»

وتبعا للصبغة الدبلوماسية الدعائية، يمكن أن نفسّر إغفاله لبعض الحقائق وقلبه لأخرى واختلاقه لغيرها.

والأقرب أنّ فكرة الجامعة الإسلامية نشأت عن الصراع العثماني الروسي، رغم أننا لا ننكر أثر أوروبا الغربية فيها. وهي وإن كانت فكرة سلفيّة، فإنها تختلف عن السلفية شيئا ما. ذلك أن مرجع السلفية هو أساسا المصادر الأولى، القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالفضل، كما يقال، في حين أنّ مرجع فكرة الجامعة الإسلامية هو تاريخ الإسلام ابتداء من القرن الخامس الهجري، عصر الحروب الصليبية، وهي بهذا تختلف نوعا ما في منهجها عن منهج الفكر السلفي المعروف، والدعوة ملحة، بالمناسبة إلى إعادة النظر في الفكر السلفي وتفرّعاته.

وتكاد فكرة الجامعة الإسلامية تنحصر في الجانب السياسي بكل ما للسياسي من أوجه نظرية وعملية، وهي بهذا التوجه عبارة عن صليبية تحديثية. وفي رحلة الجرجاوي اليابانية وُظّف الإسلام والجامعة الإسلامية توظيفاً سياسياً غير خاف، من ذلك أننا نلاحظ في خطابه إقصاءً متعمّداً لطرفين: الطرف الشيعي من الجامعة الإسلامية والطرف الأرثوذكسي من المذهب المسيحي. من ذلك أيضاً ما يتعلّق بصورة اليابان عموماً. فاليابان، هذه القوة الفتية الناهضة، التي صفّق العرب كلهم لانتصارها، إنّما

هي دولة إمبريالية⁽¹⁾، وليست حربها ضدّ روسيا غير حرب إمبريالية غايتها الاستحواذ على المستعمرات وخيرات الشعوب، وليست الوطنية والفداء والإيثار غير شعارات تُمثّلها الطبقة الرأسمالية التي دفعت الدولة إلى خوض الحرب رغم احتراز القادة الشديد من ذلك. أما في رحلة الجرجاوي اليابانية، فهي على صورة مشرقة من التقدم والقوة والوطنية والحرية والتفاؤل: ألا تمثل اليابان، إذا أخذنا بعين الاعتبار أهداف الرحلة الخفية، سلاجقة جددا جاد بهم الزمان في حين غفلة، على الإسلام ليقهر بهم أعداءه، مثلما جاد بهم في قديم الزمان فخلّصوا أرض الإسلام من الصليبيين، وعند ذلك يعيد التاريخ نفسه؟.

(1) شهدت الصين في أبريل من هذه السنة 2005 مظاهرات حاشدة تندد بالسياسة الثقافية اليابانية الهادفة إلى طمس حقائق استغلالها الاستعماري الإمبريالي الفاحش لشعوب جنوب شرقي آسيا بما فيها الصين.